ردا على ثريا ملحس حول اطروحتها عن شاعر وطباخ سيف الدولة الحمداني:

ليست هي اول من اكتشف «كشاجم» شاعر حلب وعاشقها فقد انجزت اطروحتي عنه قبلها بتسع سنوات!

كيف استطاعت الباحثة انجاز دراسة طويلة عن رجل كان يرى نفسه «نبي الشعر»اذا كان مغمور الحال وليس معروفا؟

د. عبد اللطيف اطيمش*

■ نشرت جريدة «القدس العربي» بتاريخ 2006/9/28 في صفحة «كتب ومذكرات» مقابلة مع الاديبة د. ثريا ملحس، على حلقتين، تحدثت فيها عن بدايات دراستها الاكاديمية، وحصولها على الدكتوراه من جامعة القديس يوسف اليسوعية ببيروت عام 1981. كان موضوع اطروحتها حول الشاعر كشاجم «محمود بن الحسين، المعروف بأبي الفتح كشاجم البغدادي، في آثاره واثار الدارسين».

وقد أثار استغرابي، ان د. ملحس قد ذكرت في المقابلة ما نصه: «ان هذا الشاعر والعالم كان مغمورا لدى الجميع، ولم يكتب عنه سوى سطرين او بضعة...» من غير ان تشير من باب الأمانة العلمية، الى اطروحتي التي تعرف هي بأنني كتبتها في الموضوع نفسه، حول الشاعر كشاجم، حيث درست فيها شعره واثاره الأدبية ومكانته الشعرية بين شعراء بلاط سيف الدولة الحمداني في القرن الرابع الهجري. وقد انجزتُ هذه الاطروحة عام 1973، بجامعة لندن ـ قسم الدراسات الشرقية والافريقية (سواس).

كما ان السيدة ملحس قد تجاهلت، او ربما لم تطلع على الدراسات العديدة التي كتبت عن هذا الشاعر وآثاره الادبية، سواء من قبل الدارسين العرب او من قبل المستشرقين الاجانب، وكلها تقريبا قد حققت ونشرت في اماكن عديدة من العالم.

ولكي اوضح معرفة السيدة ملحس باطروحتي، ارانى هنا مضطرا الى سرد ذكريات قديمة، مضى عليها قرابة ثلاثة وثلاثين عاما.

ففي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1970 من القرن الماضي، وصلتني رسالة مهذبة من السيدة الاديبة ثريا ملحس ـ دون معرفة شخصية سابقة ـ تذكر فيها انها تعد اطروحة دكتوراه عن الشاعر كشاجم، وانها علمت بأني اعد اطروحة دكتوراه في الموضوع ذاته، وانها ترغب بمعرفة المصادر العلمية والتاريخية التي اعتمدت عليها، والمخطوطات المتوفرة لآثار هذا الشاعر في مكتبات بريطانيا.

وقد جعلتني تلك الرسالة اكبر في السيدة ملحس اهتمامها وجديتها في البحث، وسعيها وراء المعلومة والحقيقة العلمية اينما كانت، «فالحقيقة ضالة المؤمن» في كل زمان ومكان. كما اذكر ايضا في حينها انني رددت عليها باسم «عبد اللطيف حسن» وهو اسمي آنذاك، اذ بسبب اعتبارات امنية وسياسية لم استطع استعمال لقب العائلة، «أطيمش» وهو الاسم الأدبي الذي كنت انشر فيه كتاباتي في الشعر والأدب. ذكرت لها ـ من باب تبادل المعرفة العلمية ـ المصادر والمراجع التاريخية والادبية التي بدأت اعتمادها لانجاز اطروحتي التي كانت تحت اشراف اساتذي البروفيسور توم جونستون، رئيس قسم الدراسات العربية والاسلامية بكلية (ساواس) جامعة لندن آنذاك.

وقد اوضحت للسيدة ملحس كذلك، ان ما سهّل عليّ دراسة هذا الشاعر، هو عثوري على معظم اعماله، او ربما كل اعماله الأدبية المعروفة التي ذكرتها معظم المصادر الرئيسية العربية مثل: ابن خلكان في «الوفيات» والسعودي في «مروج الذهب» وابن النديم في «الفهرست» وابن العميد في «شذرات الذهب»، وابن خلدون في «المقدمة» وحاجي خليفة في «كشف الظنون» وغيرها من المصادر التاريخية التي تحدثت عنه باسهاب، وكلما جاء ذكر سيف الدولة الحمداني، الذي رعاه واسبغ عليه نعمته.

هذا الى جانب عثوري ايضا على مصادر ودراسات بالانكليزية والعربية، تناولت كلها دراسة اعماله وسيرته الأدبية، مما سهل مهمتي العلمية.

على ان الاهم من هذا كله، وهو ما اوضحته لها في رسالتي، صدور ديوانه محققا لاول مرة على يد الباحثة العراقية خيرية محفوظ، حيث طبع الديوان في بغداد عام 1970، مع تعريف جيد ووافٍ بسيرة هذا الشاعر وعصره الأدبي، مما جعلني اعتمده بكل ثقة مصدري الاول والرئيسي في كتابة البحث، لانه في الواقع كان على درجة عالية من دقة التحقيق العلمي وضبط النصوص الشعرية وشرحها، اضافة الى الاشارات التوضيحية ازاء اختلاف الروايات في المصادر المختلفة، مع مقارنة النصوص الشعرية بين تعدد نسخ المخطوطة الشعرية. تجدر الاشارة هنا الى ان حاجي خليفة يذكر في موسوعته «كشف الظنون» ان لكشاجم ديوان شعر طبع ببيروت عام 1924 مع تعريف بالشاعر، مع انه طبع بشكل سيء ومليء بالاخطاء. لم تقل السيدة ملحس في رسالتها كيف عرفت بأني اعد اطروحة دكتوراه عن كشاجم ايضا، لكنني خمنت في انها ربما اطلعت على النشرة الجامعية التي تصدرها شهريا كلية (ساواس) للدراسات الشرقية، التي استعرضت تفاصيل المحاضرة التي القيتها بالانكليزية في تشرين الاول (اكتوبر) 1970، بجامعة لندن عن كشاجم وشعره ومكانته الادبية بين شعراء حلقة سيف الدولة الحمداني، امثال المتنبي والنامي والدمشقي وغيرهم، اضافة الى علاقته الخاصة بسيف الدولة، لا بصفته شاعرا فحسب، بل بصفته طباخه ومنجمه الخاص، حسب ما يذكر بعض المؤرخين، مما سنفصله بعد ذلك.

وكانت تلك المحاضرة بطلب من استاذي البروفيسور جونستون، حيث كانت جزءا من اطروحتي التي كان يشرف هو عليها. وربما تكون الباحثة قد سمعت عن الاطروحة ايضا من خلال النشرة الدورية التي كان يصدرها معهد المخطوطات العربية التابع للجامعة العربية انذاك.

لم يكن شاعرا مغمورا

على اية حال، اردت من خلال هذا الاستطراد ان اطلع القارئ على بدايات هذه المسألة، وان اوضح كذلك للسيدة ملحس ان هناك كتابات ودراسات ادبية سبقتها عن كشاجم (يبدو انها لم تطلع عليها وسأوضحها لاحقا) وان اطروحة جامعية سبقتها، وانجزت عام 1973 كما اسلفت، في حين اكملت هي اطروحتها عام 1981 حسبما ذكرت في المقابلة. وكان يفترض في هذا المجال ان تأخذ ذلك بعين الاعتبار كما تقتضي الامانة العلمية، وان تشير الى اطروحتي التي سبقتها باحدى عشرة سنة، تأصيلا لقواعد البحث العلمي وتأكيدا للحقائق التاريخية والأدبية، التي يفترض ان يأخذ بها كل باحث مسؤول يتوخى الحقيقة ويسعى الى اثباتها وتدوينها.

اما الامر المهم الآخر، والذي يثير الاستغراب حقا، فهو قول الباحثة «بأن كشاجم كان مغمورا لدى الجميع، وانه لم يكتب عنه احد سوى سطرين او بضعة» ونحن نتساءل هنا: اذا كان الشاعر موضع الدراسة مغمورا ولم يكتب عنه احد، فكيف تسنى للباحثة ان تكتب عنه اطروحة بألف وسبعمئة صفحة بخط اليد، كما تقول، دون الاعتماد على معلومات وافية عنه، مشفوعة بمصادر ومراجع عديدة موثوقة تمكنها من الاحاطة الموضوعية بكل الحقائق العلمية التي يتطلبها بحث جامعي رصين؟ ان الاطروحات الجامعية لا تبنى على الاجتهادات في البحث او التخمينات والآراء الشخصية لملء الصفحات، وانما تبنى على الشواهد والحقائق الموضوعية والتاريخية الموثقة والمتعلقة بالشخصية المراد دراستها، كي يأتي البحث امينا ثريا واصيلا يركن اليه ويعتد بنتائجه. وهذه هي مسؤولية الباحث الجاد المخلص لعمله والحريص على الامانة العلمية للبحث. كل الشواهد التاريخية تؤكد ان كشاجم لم يكن شاعرا مغمورا، بل على العكس كان ذا شهرة طاغية في عصره. فليس هناك مصدر مهم من مصادر الادب العربي القديم الا وذكره وتحدث عنه وعن شعره ومؤلفاته.

ويكفي ان نشير الى ان الثعالبي في اليتيمة (ص 11 ـ 42) في حديثه عن أبي اسحق الصابي ورسائله، قال بأن كشاجم كان شاعرا وأديبا مشهورا الى درجة ان احد الشعراء قال (ضاربا به المثل):

يا بؤس من يُمنى بدمع ساجم يهمي على حجب الفؤاد الواجم
لولا تعلّله بكأس مدامة ورسائل «الصابي» وشعر «كشاجم»

بل ان كشاجم كان يدرك مدى شهرته بين الناس، وكان شديد الاعتداد بنفسه وبشاعريته، الى درجة انه كان يعتبر نفسه «نبي الشعر» حين قال في ص 204 من ديوانه:

على أني نبيّ الشعر قد جئت على فترة
فلو انصف حسادي رأوني فوقهم قطرة
بغوا شأوي في الشعر فما ان قطعوا شعره

يضاف الى هذا، ان كثيرا من مؤرخي الأدب امثال: ابن العديم في «زبدة الحلب في تاريخ حلب» وابن الأثير في «الكامل» وابن خلدون في «العبر وديوان المبتدأ والخبر» وابن سعد في «المغرب في حلل المغرب» وابن الشحنة في «الدّر المنتخب من تاريخ حلب» وابن الطقطقي في «الفخري في الآداب السلطانية»، كل هؤلاء وغيرهم تحدثوا عن كشاجم وشهرته المتداولة في عصره ومعرفته بعلوم شتى غير الشعر والأدب، كالتنجيم والبيطرة وفنون الطبخ.

وفي كتاب «شذرات الذهب» لابن العميد، نجد حديثا وافيا عن كشاجم، حيث يذكر بأنه كان في شبابه في خدمة أبي الهيجاء بن حمدان والد سيف الدولة، وبعد وفاته التحق بخدمة ابنه سيف الدولة الحمداني وشكل واحدا في حلقته الأدبية المعروفة، وكان ايضا طباخا له ومنجمه كذلك.

شاعر ومنجم

ويذكر العماد الاصفهاني ان مهنة التنجيم كانت واحدة من الصناعات التي كان يجيدها كشاجم. ويذكر كذلك ان سيف الدولة ربما كان يستشيره ويستقرئه الطالع احيانا قبل قيامه بحملاته الحربية ضد الروم وعاش مشهورا مرفها في بلاط سيف الدولة حتى وفاته بحدود 360 هـ. وذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج6 ص53 ان كشاجم كان اذا ذهب للصيد، يذهب معه عدد كبير من خدمه وغلمانه، بدليل قوله:

طعام اذا ما شئت باكرت طبخه على كثرة من غلمتي وطهاتي
وهذا دليل على ثرائه وكثرة ماله، وقد عرف بذلك بين الناس

ومما هو طريف وجدير بالتنويه حول شهرة كشاجم وتعدد مواهبه والصناعات التي كان يجيدها ما ذكره ابن مسكويه في «تجارب الامم» (مجلد 6 ص 485) من ان كل حرف من اسم كشاجم كان يشير الى صناعة او حرفة معينة كان يمارسها او صفة كان يتميز بها، فالكاف، مثلا من «كاتب» والشين من «شاعر» والألف من «أديب» والجيم من «جوّاد» والميم من «منجم»، فهو اذن بمصطلحنا المعاصر رجل متعدد المواهب فلا غرابة ان يحظى بتلك الشهرة العريضة التي جعلت العلماء والمؤرخين ينوهون به ويتدارسون آثاره الأدبية.

يذكر العديد من مصادر الادب العربي القديم ان كشاجم ألف كتبا عديدة في شتى مجالات المعرفة ربما ضاع كثير منها ولكنهم يتفقون على انه ترك اضافة الى ديوان شعره الذي حقق لاحقا كما ذكرت سالفا ثلاثة كتب مهمة هي: «المصايد والمطارد» و«أدب النديم»، و«كتاب الطبيخ» ولا ادري ان كانت السيدة ملحس قد اطلعت على هذه الكتب او على الدراسات الاجنبية التي تناولتها او ما ترجم منها الى الانكليزية مثل «كتاب الطبيخ».

وسأحاول التحدث بايجاز عن هذه الكتب الثلاثة مستعينا باطروحتي السالفة الذكر (عن كشاجم ومكانته الأدبية في عصر سيف الدولة الحمداني) ومستعيدا للحقائق الأدبية والمعلومات التي جمعتها آنذاك من شتى المصادر التاريخية، عن هذا الشاعر، كي ابين للسيدة الباحثة ان هذه الشخصية الأدبية قد استأثرت باهتمام الدارسين عربا واجانب، فكتبوا عن صاحبها وعن مؤلفاته العديدة ودرسوا شعره وترجموا بعضا من آثاره، وهذا دليل على ذيوع شهرته، وعلو مكانته العلمية.

وايضا له كتاب عن الطبيخ

فبالاضافة الى ديوان كشاجم المطبوع والمحقق من قبل السيدة خيرية محفوظ والذي اشرت اليه سابقا ان لكشاجم كتابا مهما ومعروفا هو «كتاب المصايد والمطارد» الذي حققه د. اسعد طلس ونشر ببغداد عام 1945 مع مقدمة وافية عن حياة الشاعر وعصره. وقد اشار الى هذا الكتاب معظم المؤرخين القدامى مثل ابن خلكان في «وفيات الاعيان» الجزء الاول ص 178، والسعودي في «مروج الذهب» ج4 ص363 وابن النديم في «الفهرست» ص200. اما حاجي خليفة في موسوعته «كشف الظنون» فقد ذكره باسم «كتاب الطرديات» اضافة الى بقية مؤرخي الأدب القدامى. وهذا الكتاب من اوائل الكتب الأدبية والعلمية التي تحدثت عن الصيد والطرد، كمهنة ومتعة وفن، كان يمارسه الملوك والامراء والخلفاء مع توضيح لمهنة «البازيار» التي كانت تطلق على مربي الصقور وجوارح الصيد وحيواناتها والمتصيد بها، اضافة الى ذكر دور الشعر في هذا المجال، في وصفه لمشاهد العبيد ووصف الطبيعة والحيوانات المختلفة والحياة الرعوية بصورة عامة. كما اهتم هذا الكتاب ايضا بوصف العلاج الطبي للحالات التي كان يصاب بها الطير او الحيوان عند اصابته بجروح او لدى مرضه، مما يعطي صورة متقدمة لتطور علم الطب البيطري عند العرب في ذلك الوقت من خلال صناعة الادوية المختلفة المستعملة لعلاج الطير والحيوان وتشخيص الامراض التي يتعرض لها. ولأهمية هذا الكتاب الفريد في بابه، فقد اهتم به المستشرقون وكتبوا عنه، امثال المستشرق الانكليزي «جب» H.R.Gibb الذي تحدث عنه وعن مؤلفه في كتابه:

Studies on the Civilization of Islam, London 1962

وكذلك البروفيسور نيكلسون في كتابه

Literary History of the Arabs, Cambridge 1930.

وأما الكتاب الثاني الذي ألفه كشاجم وهو متميز ايضا في صناعته في ذلك العهد المبكر والذي يتصل بخبرته العملية في مجالسة الامراء وأعيان القوم في بلاط سيف الدولة، فهو كتاب «أدب النديم» الذي حققه د. اسعد طلس وطبع بالقاهرة عام 1911 مع مقدمة عن الشاعر وسيرته الادبية. ففي هذا الكتاب وصف لمجلس الشرب وازياء السقاة وآداب الشاربين وازيائهم وسلوكهم والقواعد والاصول المتبعة في هذا الميدان وكل ما اصطلح على تسميته حاليا «اتيكيت المجالس والصالونات»، حيث يعكس هذا الكتاب صورة المجتمع العربي، ومدى الثراء والرفاهية التي كانت تسود بلاط سيف الدولة الحمداني في تلك الحقبة من القرن الرابع الهجري.

وقد طبع هذا الكتاب، بعد ذلك مرتين تحت اسم «أدب الندماء ولطائف الظرفاء». الاولى بالاسكندرية عام 1941 والثانية ببولاق عام 1956، مع تعريف بالشاعر وطبيعة عصره. وقد تحدث عن هذا الكتاب كثير في المستشرقين من خلال استعراضهم لتطور مظاهر الحضارة الجديدة في العصر العباسي، مثل المستشرق ادم ميتز في كتابه عن «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري» الذي نقله الى العربية د. أبو ريدة، كما ذكرت هذا الكتاب بعض المصادر العربية القديمة مثل: نهر الذهب في تاريخ حلب لكامل بن الحسين الغزي، و«اخبار العلماء» للقفطي، و«نهاية الأدب» للنويري.

واما الكتاب الثالث للشاعر كشاجم فهو كتاب «الطبيخ» الذي اشارت اليه معظم المصادر العربية القديمة واعتبرته فريدا في بابه، حيث اشار اليه ابن مسكويه في «تجارب الامم» والمسعودي في «مروج الذهب» والقفطي في «اخبار العلماء» وقد تحدثوا جميعا عن هذا الكتاب مشيرين الى براعة كشاجم في وصف الاطعمة في اشعاره، وبيان مواصفاتها وطريقة طهيها، وكذلك تفننه في وصف الحلويات وانواع الشراب في قصائده، من خلال ممارسته وخبرته بصفته طباخا لسيف الدولة الحمداني والمشرف على خدمته. وقد التفت الى هذا الكتاب النادر المستشرق البريطاني المعروف (آربري) A.Arbary وترجمه الى الانكليزية تحت عنوان:

A Baghdad Cookery Book, Haydarabad 1939

وكتب له مقدمة وافية استعرض فيها مكانة كشاجم الشعرية في ظل مملكة الحمدانيين بحلب، تحت رعاية خاصة من سيف الدولة الحمداني بصفته واحدا من شعراء حلقته الادبية المعروفة الى جانب كبار الشعراء والادباء واللغويين امثال المتنبي والنامي والسري الرفاء وأبي فراس الحمداني وابن خالويه النحوي وغيرهم من مشاهير ادباء القرن الرابع الهجري.

وقد اشاد المستشرق (آربري) بتفرد كشاجم في تطوير هذا اللون الشعري الفني، واستثمار الشعر في وصف الاطعمة والمأكولات وطريقة صناعتها، والمواصفات المطلوبة في كل اكلة، وبصورة تدعو للدهشة والاعجاب وتعكس المستوى الرفيع الذي بلغه المطبخ العربي آنذاك، والمستوى الحضاري الذي بلغه المجتمع في تلك الفترة من الحكم العباسي بصورة عامة والحياة الاجتماعية في البلاط الحمداني بصورة خاصة.

تجدر الاشارة الى ان «كتاب الطبيخ» هذا طبع لاول مرة عام 1928 في الموصل ـ العراق، وقد حرره بالعربية د. حمدي الجلبي قبل ان يترجمه المستشرق (آربري) الى الانكليزية كما ذكرنا سابقا.

فهذه الكتب الثلاثة، لم تكن موضع اهتمام الدارسين العرب فحسب، وانما كانت كذلك موضع اهتمام المستشرقين الاجانب الذين كتبوا عن مزاياها وترجموا بعضا منها مشيدين بمؤلفها متناولين حياته وعصره وشهرته الواسعة بين أدباء زمانه.

انني اتساءل هنا: اما كان مفيدا للدكتورة ملحس لو انها اطلعت على هذه المصادر المهمة حول كشاجم لكي تثري بها اطروحتها وتستوفي بها مقومات بحثها أدبيا وتاريخيا قبل ان تتسرع في اصدار احكامها وتدعي انها اول من كتب عن هذا الشاعر الذي اعتقدت ـ خطأ ـ انه لم يكن مشهورا بما فيه الكفاية، ولم يكتب عنه احد قبلها..؟

عاشق مدينة حلب

وبهذا الصدد، اود ان اضيف هنا ميزة اخرى عرف بها هذا الشاعر وساهمت في ذيوع شهرته، واعني بها حبه لمدينة «حلب» التي عاش فيها، حيث تغنى بجمالها في قصائده ووصف رياضها وبساتينها وانهارها، بل انه صار يدعو في اشعاره الناس الى زيارتها والتمتع بجوها الساحر ومناظرها الطبيعية الاخاذة، اذ كانت يومها من اجمل مدن الشام بعد ان تعهدها سيف الدولة وجلب لها كما تذكر بعض المصادر المهندسين من بلاد الروم لينسقوا حدائقها وميادينها العامة، حتى صارت قبلة الانظار. يقول كشاجم في وصفها:

وما متعت جارها بلدة كما متعت «حلب» جارها
هي الخلد تجمع ما تشتهي فزرها فطوبى لمن زارها
ولله فيها شهور الربيع حين تعطر اسحارها
فما تقع العين الا على رياض تصنف انوارها

وغالبا ما يرتبط وصف كشاجم لصنوف الأطعمة والولائم، بتصويره لمظاهر الحياة الاجتماعية والتقاليد والطقوس الشائعة في تلك المرحلة، مما يجعل شعره وثيقة تاريخية يعتد بها ازاء طبيعة البيئة والمجتمع العربي الاسلامي ابان تلك الفترة من العصر العباسي. فهو، مثلا، يصف لنا كيف كان الناس يحتفلون بأعياد ميلاد سيدنا المسيح، وليلة السنة الميلادية، حيث تقام الولائم وطبخ الأطعمة المتنوعة، وسط اجواء الموسيقى والرقص والغناء. يصف ذلك كله في قصيدة نقتطف منها هذه الابيات التي يشير فيها بشكل خاص الى تهيئة ليلته الخاصة واعداده الطعام والفاكهة مع اصدقائه بصحبة الراقصين والراقصات وسط انغام الموسيقى الشجية:ـ

وليلة ميلاد «عيسى المسيح»
قد طالبتني بميثاقها فتلك قدوري على نارها
وفاكهتي فوق أطباقها وبنتُ الزمان فقد أبرزت
من الخدر، تجلى لعشاقها وقد قامت السوقُ بالمُسمعات
وبالمُسمعين على ساقها

اعياد كريسماس والعاب نارية

وفي البيت الأخير دلالة خاصة، اذ كما يبدو ان الاحتفالات كانت تمتد الى الاسواق، وأن الناس كانوا يستمعون الى الغناء والرقص، الذي ربما كانت تؤديه فرق موسيقية شعبية ويذكر «الشابشي» في كتابه المشهور «الديّارات» أن الناس، مسلمين ومسيحيين، كانوا يحتفلون بمناسبة ميلاد المسيح (الكريسماس) وأن المسيحيين في ذلك العهد، كانوا يدعون اصدقاءهم المسلمين الى الأديرة، حيث تشعل النيران وتقام الألعاب النارية ((Fire Work كما هي الآن في هذه الايام، فيأكلون معا ويشربون ويرقصون، مما يعكس جوا من الألفة والمحبة والتسامح بين الأديان، حيث كان التآلف والانسجام يسود المجتمع الواحد، يعيش فيه الناس بالتآخي والتراحم والعيش الآمن. يصف كشاجم كل ذلك في هذه الابيات:

فتلاعبت بعقولنا نسوانه وتوقدت بخدودنا نيرانه
حتى حسبت لنا البساط سفينة والدير ترقصُ حولنا حيطانهُ

كما يخبرنا كشاجم ايضا، ان الناس في تلك الايام، كانوا يحتفلون جميعا، في فصل الربيع، بمناسبة شعبية اخرى تسمى «المهرجان» وهو احتفال تقليدي سنوي كان يقام في شتى المدن والقرى، حيث تقام الولائم والاحتفالات، وتعد الاطعمة والحلويات بأنواعها المختلفة، ويستقبله الناس من كل الأديان والطوائف بالشراب والغناء والرقص حتى صباح اليوم التالي. يقول الشاعر واصفا هذه المناسبة:

«للمهرجان عليك حق سنه آباؤك المتقدمون، فأده
باكره بالراح الشمول تحثها صرنا على زهر الربيع وورده
كأسا ترى فيها مثالك من يدي ساق يريك مثالها من خده

ثم ينقل لنا، في قصيدة اخرى، صورة صادقة للبيئة «الحلبية» ايام حكم الحمدانيين، وطبيعة المجتمع المختلط المنفتح على الثقافات والعادات الاخرى، فيتحدث عن عادات الناس في الذهاب الى الحمامات الحلبية المنتشرة في أرجاء المدينة، والتي يذكر «المقريزي» في كتابه «خطط الشام» (ج 11 ص 85) «أن في حلب وحدها كان ما يزيد على خمسة آلاف حمام» وانه كان مألوفا في مجالس اللهو والطرب ظهور غلمان يرتدون ملابس النساء، وجوار يرتدين ملابس الغلمان وشعورهن مقصوصة على طريقة الرجال، حيث كان يطلق عليهن اسم «الغلاميّات»، ولم يكن يثير ذلك أي حرج للناس.

يقول كشاجم في ابيات من تلك القصيدة:

قد عزمنا على مباكرة الشرب، ولكن ما عندنا من طعام
ولدينا ما تشتهي بعد هذا من غناء يُنسي غناءَ الحمام
ثم من نرجس بصير وأعمى ونبيذ مُحلّل وحرام
وغلام في زيّه كفتاة وفتاة في زيّها كغلام
كأناس يوشّحون المناديل إذا أخرجوا من الحمّام

وكانت ظاهرة «الغلاميات» هذه موجودة ببغداد منذ العصر العباسي الاول، وكان أبو نواس، قد أشار اليها في قصائده التي كان يصف فيها مجالس الطرب والشرب في ملاهي «بغداد» حين قال في وصف واحدة منهن:

مقصوصةُ الشعر غلاميّةٌ تصلُح للوطي والزاني

كان كشاجم متأثراً بصديق الشاعر ابي القاسم الصنوبري الذي اشتهر بوصف الطبيعة والحدائق وانواع الزهور في مدينة «حلب» حيث كان متفرداً بهذا اللون الشعري من بين جميع شعراء حلقة سيف الدولة ويكفي ان نعرف ان لقبه «الصنوبري» يدل على ذلك. وكان هو الآخر محباً «لحلب» مثل كشاجم، حيث كانا يطلقان عليها اسم «مدينتنا» دلالة على الحميمية والألفة والتعلق بهذه المدينة الجميلة التي كانا ينعمان بمباهجها وخيراتها في ظل حماية ملك عزيز، حماها ودافع عنها ضد غزوات الروم، وتعهدها بالرعاية والتنسيق والتجميل، حتى صارت من أجمل الحواضر في عصره. وحين كتب «الصنوبري» يصف الربيع في «حلب» ويذكر الورد والثلج وأجواء الشرب والمرح في أبيات من قصيدة يقول فيه:

ذهّبْ كؤوسَك يا غلامُ فإنهُ يومٌ مفضّضْ
والجوّ يُجلى في الفيافي وفي حلّي الدّر يُعرضْ
أظننتَ ذا ثلجاً وذا وردٌ من الأغصان يُنفضْ
وردُ الربيع ملوّنٌ والوردُ في كانون أبيضْ

نجد كشاجم يردّ عليه بقصيدة متحدثاً عن أجواء الربيع الطلق ذاتها في «حلب» حين يختلط احياناً هطول الثلج والمطر مع ظهور الشمس، فتبدو الأرض بساطاً رائعاً ابيض اخضر ملوناً بشتى ألوان الزهر، وتظهر المدينة في أبهى حللها، ويحلو، كما يقول الشاعر، جو الشرب فيها، حيث يقول:

ثلجٌ وصوبٌ غادية فالأرض في كل جانبٍ غرّةْ
باتت وقيعانُها زبر جدةٌ فأصبحتْ قد تحولتْ درّةْ
كأن في الجوّ أيدياً نثرتْ ورداً علينا، فأسرعتْ نثرةْ
فاشرب على الثلج من مُشعشعة كأنها في إنائها جُمرةْ
قد جُليتْ في البياض «بلدتُنا» فأجلُ علينا الكؤوس في الحمرةْ

وهكذا، نجد ذكر مدينة «حلب» والتغني بجمالها في قصائده، كثيراً في ديوانه، مما يؤكد شدة حبه لها وتعلقه بخصوصية اجوائها الجميلة فعلاً يستحق أن يلقب بـ«شاعر حلب».

نماذج من قصائد الاطعمة

ان ديوان كشاجم حافل بالقصائد التي تصف انواع الاطعمة والمأكولات المطبوخة والفاكهة والخضروات المنوعة، مما يكشف عن ثراء المطبخ العربي في تلك العهود، وتفنن الطهاة في ابتكار صنوف جديدة من المأكولات، مستفيدين في ذلك من ثقافات وفنون الطبخ لدى الأمم الاخرى التي اختلطت بالمجتمع العربي يومذاك. ولكننا سنكتفي بهذه الامثلة القليلة من قصائد هذا الشاعر، قال يصف أكلة منوعة تسمى «طفشيل» او خبيصة، وهي خليط من الجزر والبيض والزيت مع البارات، اذ يقول:

فهاتها في حليها تُجتلى كالروض إذ صُوّرَ تصويرا
زخارفُ الوشي وألوانُه تبرٌ من الجوهر منثورا
والجَزَرا الغضّ بأرجائها يحكي لنا فيه الدنانيرا
وأصفرٌ يضحك في أخضرٍ كأنما واجه مهرجورا
والبيض فيها نرجسٌ تبرهُ في قضية قُدّرَ تقديرا
والزيت قد ضيّق أنفاسها ريّاً، وقد عمّ الابازيرا
خبيصة صفراءُ... لكنها تحوي من النبت عقاقيرا

ثم يصف في قصيدة اخرى دجاجة ضخمة مشوية، فيقول:

عظيمةُ الزور بصدرٍ نَهِدْ أجريتَ منها في مجال العَقِدْ
مرهفةٌ ذاتُ شب وجدّ لغير ما دخل وغير حقد
بل رغبةٌ فيها شبيهُ الزهد ولم تزل بالماء كف العابد
حتى اذا أنضجها بالوقد صُبّ عليها اللوزُ مثل الزبد
وغُلّيتْ، بعد، بماء ورد كأنها قد بُخرتْ بالسّند

ثم يتحدث عن اللحم المشوي والأمراق فيقول في قصيدة:

وخيرُ اللحم ما اقلقهُ الجارحُ إقلاقا
فكلْ منه شفاكَ الله مشوياً وأمراقا
فهذا الحفظُ للصحة لا تدبيرُ اسحاقا

ويصف في قصيدة اخرى مائدة متنوعة الالوان، مختلفة اللحوم والخضروات، يذكرها باسمائها المختلفة، كاشفا طريقة صنعها وانواع البهارات الملائمة لها. ثم يذكر بعدها انواع الحلوى التي تؤكل بعد هذه الاكلة الدسمة مع طريقة تركيبها والمواد الخاصة بصنعها، حتى تبدو في أحسن صورة، حيث يقول:

فجاءت، وهي من أطيب ما يؤكلُ مشحونهْ
فمن جدي شويناه، وعصبناً مصارينه
ونضّدنا عليها نعنعَ البقلِ وطرخونه
وفرخ وافر الزور أجدنا لك تطجينه
وسنبوسجةً مقلوّة في اثر طردينه
وحمراءَ من البيض الى جانب زيتونه
واوساطِ شطيرات بزيت الماء مدهونه
يولّدن لذيّ الشهوة جوعاً ويشهينه
وطلع كنظام الدّر في الأسفاط مكنونة
وحريف من الجبن به الاوساط مقرونه
وخلّ ترعفُ الآنافُ منه وهي مختونه
وباذنجانٌ يوراني به نفسكُ منقونه
وهليون... وعهدي بك تستغربُ هليونه
ولوز ينجة في الدهن والسكر مدفونه
وعندي لك دستيجةٌ مطبوخ وقتينه
وقمريٌ يغنيك لحوناً غير ملحونه

ولم يقتصر اهتمام كشاجم على وصف الاكلات المطبوخة او الحلويات، وطريقة اعدادها، بل تعداه ايضا الى وصف انواع الفاكهة والخضروات المألوفة، والتي تشكل هي ايضا تكملة للمائدة النموذجية حين تقام الموائد العامرة في المناسبات المختلفة او اثناء الدعوات العائلية والاخوانية. مثال ذلك هذه الابيات التي يصف فيها التين الاسود والاصفر:

أهلاً بتينٍ جاءنا مبتسماً على طبقْ
يحكي الصباحُ بعضُه وبعضُه يحكي الغسقْ
كسفرة مضمومة مجموعةٌ بلا حَلَقْ

ثم ينتقل الى وصف الباقلاء، فيركّز الصورة الشعرية ويكشفها بأسلوبه الوصفي الخاص الذي برع فيه، والذي تكشف عن دقة الملاحظة والقدرة على ابتكار التشبيهات، فيقول:

وكأن وردَ الباقلاء دراهمٌ قد ضُمّختْ أوساطُها بالعنبرِ
وكأنه من فوق متن غصونه يرنو بمقلة أقبلٍ أو أحورِ

ثم يعود الى وصف التين ـ الذي يبدو انه مولع به ـ بصورة اخرى، وتشبيهات مختلفة تكشف عن قدرة بصرية حادة، تلتقط صورة الاشياء وتبتكرها معانيها الخاصة وتشبيهاتها الطريفة المبدعة. فيقول في ذلك:

نُلممْ بتينٍ لذّ طعماً واكتسى حسناً، وقارب منظراً من مَخبرِ
كالثلج برداً، في صفاء التبرِ في ريح العبير، وفوق طعم السُكّرِ
لَطفتْ معانيه لطافةَ عاشقٍ في لون مشتاقٍ حليف تفكرِ
يحكي اذا ما صُفّ في أطباقه خيماً ضُربن من الحرير الأصفرِ

وفي الختام، آمل ان تكون هذه المقالة قد القت ضوءا على بعض الحقائق التاريخية والادبية التي غابت عن ذهن الباحثة لكيلا يختلط الزائف بالاصيل وتضيع الحقائق الأدبية في تراثنا العربي وسط اللامبالاة وعدم التقيد بأصول البحث العلمي.

* شاعر واكاديمي عراقي يقيم في لندن